مُشكلة الحريّة

بقلم الياس يعقوب

على الرغم من جميع الثورات التي نشبت ، فان مشكلة الحرية ما زالت قائمة يواجهها الانسان كل يوم . وتجتاز الحرية اليوم أزمة شديدة الخطورة . وقد شهد هذا العصر زوالها في بعض البلدان ، والتضييق عليها في البعض الآخر . ذلك انها ، من وجهة النظر الاستبدادية ، تأتي في عداد المظاهر الاجتماعية التي تنطوي على خطر وضرر ، ولهذا كان لا بد من تقنينها ومراقبتها بشدة كي لا تفلت ، وتحطم ، وتخرب الأوضاع والمفاهيم والتقاليد التي أورثها السلف للخلف : ومن هنا كان لا بد من تقييد لحرية القول ، وحدٍّ من حرية الكتابة ، وحرية التجول ، وحرية العمل ، وحرية العبادة ... فكأن الحرية باتت عبئاً ثقيلاً على صاحبها ، تقلقه وتسبب له المتاعب والمصاعب ، وعبئاً اكثر ثقلاً على الفئة الحاكمة التي حارت في ضبطها وتنظيمها وحارت في سد المسام العديدة التي تنفذ منها . ومع هذا ، فان الانسان ما برح يطلق اصواتاً تشتد وتتعالى مطالبة بالحرية : بعضها يبغي المزيد ، لأن القسط الذي يتمتع به لم يعد يفي بغاياته ، ويتلاءم مع مرحلة تطوره ، وبعضها يحاول التحرر من القيود التي فرضت عليه قسراً ، فيصارع أو يعدّ نفسه للصراع الطويل الشاق . لأن كل حد من الحرية ، سواء جاء من الداخل أم من الخارج ، ليس مستساغاً . وقلما مرت عهود على الانسان بلغ بها شغفه بالحرية هذا المستوى العالي من الحرارة والشدة . وهو إذا لهج بها دائماً ، وحنّ اليها كما يحن الجائع الى الرغيف ويتمثله في اليقظة والنوم ، فليس ذلك لأنه محروم منها فقط ، بل لأنه بات يوقن انها إكسير الحياة ، ونطاق ضمان لسائر القيم السامية التي تحتضر في ظل العبودية والعسف والإستبداد .

وأية حرية ينشد الانسان ؟ هل ينشد الحرية الجسدية ؟ ان الجميع يتمتعون بها على أوسع نطاق ما خلا المجرمين والمرضى والذين اصيبوا بعاهات أقعدتهم عن حرية الحركة . وهذا الضرب من الحرية غاية الانسان العادي الذي يقف تفكيره عند تخوم الضرورة ، أم يروم الانعتاق الكلي من نواميس الطبيعة ؟ إنه لا ينفك يكافح قوى الطبيعة حيناً ، ويتلاءم معها احياناً . وهو في حالتي الكفاح والتلاؤم لا ينقم ، ولا يخرب ولا يفسد ، ولا تشوب نفسه مرارة رغم الكوارث التي تنزل به ، لا لأن الطبيعة تتحلى بالرحمة ، وتتصف بالعدل والمساواة ، ففي واقعها من التمايز ما لا يمكن ان يوصف : مناطق يتطرف فيها الحر ، واخرى يتطرف فيها البرد ، وثالثة يعتدل فيها البرد والحر ؛ هنا يغزر المطر ، وهناك ينحبس سنوات بعدها سنوات ، هنا يكمن الخصب ، وهناك يتجلى الجدب ، بعض المناطق تزخر احشاؤها بالمعادن المختلفة ، ومناطق اخرى تشكو العقم الأبدي . ومع ذلك فان الانسان لا يتذمر من هذه القسمة ، ولا يرمي الخالق بالتحيز والمحاباة . لا لأنه راض وقانع ، بل لأنه يؤمن ان الطبيعة لم تستهدفه بظلمها . ثم ان مكوثه فوق بقعة معينة من الأرض ليس اضطرارياً ابداً . إن الانسان في صراعه لا ينشد هذه ولا تلك بل يطلب الحرية في المجتمع . والمرارة التي تشوب حياته مصدرها الأوضاع السيئة التي جاء بها الانسان وتعمد بموجبها حرمانه نعمة الحرية ، والاكثار من الأغلال . ولهذا كانت معركة الحرية معركة انسانية ، قائمة في صميم المجتمعات ، لانها قيمة اجتماعية . وككل معركة يتمثل فيها فريقان : الفريق الذي يقبض على زمام السلطة ، وتتجمع لديه القوة والبأس ، والفريق المتألم ، الثائر ، الذي ينوء تحت ثقل الظلم . الحرية هي موضوع النزاع بين الحاكم والمحكوم ، بين الشعوب والحكومات . الحكومات تظاهرها الفئات التي تريد الاستمرار وتؤثر الكسل والطاعة بسائق من الخوف أو الجهل ، وتقبل لنفسها ولغيرها مصيراً لا يصح القول فيه انه صالح . واذا عرفنا ان هذه الفئة تكوّن الأكثرية زال عجبنا من قلة أنصار الحرية والمتحررين .

وليس فقط لان الصراع مهر الحرية ، والصراع لتحقيق الافضل مما هو كائن يتطلب جهداً وآلاماً وتضحيات متواصلة ، واكثر الناس يؤثرون العافية والسلامة، بل لان الحرية الفكرية، وهي اسمى ما تبلغه الحرية في صفائها ، لا تقوم الا على دعـــائم من الاخلاق والمعرفة . وهذان الركنان يجنبانهـا مواضع الفساد ومهاوي الضلال . وما اقل النفوس التي يتعانق فيها هذان الاقنومان !

ان الحكومات تدأب لضمان الاستقرار ، ولو كان فيـه الجمود والاضمحلال . وتبدو مقترة الى أقصى درجات التقتير في منح الحقوق التي اغتصبتها ، وفي سيرها تكون بطيئة، متثاقلة، تكره الطفرة، وتخشى الوثبة، وترتعد إزاء كل جديد وجريء. ان قواعد سلوكها تحذدت في أقنية تكونت من ركام التقاليد والقوانين التي تستمد منها مفاهيمها . ولهذا كانت ممثلة الماضي في صميم الحاضر . أما الفرد فرائده الابداع باستمرار. انه يتأثر بالتقاليد والقوانين، لكنه لا يحملها فوق منكبيه ويرزح تحتها، بل يتخذها وسيلة لمرحلة اخرى يثب اليها . انه يرى الحيـــاة حركة وتطوراً دائمين . ويرى ان الحرية حق طبيعي وأساسي ولهذا لا يجوز سلبه او تعطيله بدافع أية ضرورة كانت . إن على الحكومات ان تصون الحرية وتوجهها صوب الخير ، ولكن لا يجوز لها ان تضعها في قمقم اسوة بالعفاريت وتضع الحراس على ابوابه . وترى الحكومات عكس ذلك : إنها صاحبة الحق في منح الحرية أو في حرمانها . ولهذا كان لا بد من التصـادم بين قوتين متنافرتين تختلفان بطبيعتها وتختلفان بمقاصدهمـــا . وعـلى مسرح الثورات لا نرى إلا هذين البطلـــين : الشعب والحكومة .

لقد استقر في الاذهان ان الحرية تنافي مبدأ السلطة ، وهي لا تتحقق ما لم يزل آخر ظـل للحكومات ، وما لم يتمكن الانسان من تحطيم قيود القانون. وبدون تحقيق هذين الشرطين لا يستطيع التمتع بنعمة الحرية . واذا حاولنا تعليل هـــذا النفور المتأصل في النفوس من السلطة ، وهذه الرغبة الكامنـة للتحلل من قيود القانون، لوجدنا السبب البعيد في الاساليب الفظة التي اتصفت بها اعمال الحكومات والغطرسة التي تتميز بها. وان الخشية من القانون ليست حنيناً إلى زمن لم يكن فيه قانون ، بل من العبث بالقوانين، وتجاهلها في بعض الحالات ، والتلاعب في تأويلها وتطبيقها . لان الدولة في حقيقتها ليست الا مرحـلة من مراحـل تطور المجتمع . ولهذا نراها غير قائمة في المجتمعات الاولية ، متأخرة في المجتمعات المتأخرة ثقافياً . وان الحكومة والقوانين ليسا شيئين خارجيين عن الانسان فرضا عليه قسراً بل هما منبثقان من صميمه . وان الثورات التاريخية استهدفت ابدال نظـام الحكم وتهذيب القوانين ولم تحلم بنسفها مبدئياً . فاذا كانت غاية الانسان الاخيرة التفلت من جميع القيود فانه لا يدرك الحرية التي ينشد ، بل يبلغ الفوضى المحققة التي تنعدم فيها الطمأنينة والراحـــة . ومن ثم فان الفوضى المستحكمة تتمخض عن العبودية ، وان الفئـة الضعيفة المستسلمة تقع تحت سيطرة الجماعة التي تتسم أعمالها بطابع العنف والجرأة والتخـلي عن معطيات العقـل والمفاهيم الاخلاقية . وفي زمننا هذا بات تدخل السلطة أمراً ضرورياً قصد تنسيق العلاقات بين الافراد كي تصد أمواج الطغيـــان . وتفرض الكثير من التدابير كي يتحقق اليسير من العدالة بين الناس . وقبل ان نعلـــن ثورة طائشة على مبدأ الحكومات والقانون ، يجب ان نقيم الدليل ان نزعاتنا خالية من الشرور . وما لم تخل حياتنا من المساوىء فاننا نظل بحاجـــة الى ناظم لهذه النزعات لتقييدها وتهذيبها كي لا تنطلق جامحة مدمرة .

وإذا كان التطور التاريخي قد اقتضى تدخل الدولة في جميع المرافق ، فلا ينبغي ان تتخذ السلطة من هذا التدخل مبرراً لفرض آراء ونظريات لا يؤمن بها سائر الناس ، وتقسرهم عـلى الايمـان بها او السكوت عنها ، ولا وسيلة لسحق الشخصية . لان الفوضى ، مهما تطرفت ، لا تبرر فرض الاستبداد والكفر بالحرية . ليست الحرية اماً للفوضى ، وان القضاء على الفوضى لا يستوجب وأد الحرية . لان الفوضى مردّها إلى الفساد الذي استشرى . وما لم تكافح المفاسد التي كوّنت الفوضى ، فان الكبت والعنف لا يزيلان المساوىء . وان الذين يقيمون من انفسهم دعـاة لنظام استبدادي لا يرضاه الشعب دستوراً له في الحياة ، بحجة ان المصلحة العامة تتطلب مراقبة الحرية وتقنينها ، يعتبرون بحق ألد اعداء الشعب ، وامعنهم في خصومته ، واكثرهم

عوناً على وأد شجاعته . وليس اضر بالمصلحة العامة من سلب الحق بالحرية وجعل هذا الحق بيد الطبقة التي قدر لها ان تقبض على الحكم. وليس صحيحاً ان الثورات تقل بنسبة ازدياد الضغط بل العكس هو الصحيح . فما نشبت ثورة الا وكان وراءها نظام استبدادي فاسد ، وعهود قبلها عهود ، ساد فيها الظلم والطغيان .

ليست الحرية أربعاً او اكثر او اقل بل واحدة في الجوهر. وما الحريات التي كثر استعمالها خلال الحرب الأخيرة وبعدها الا مظاهر متعددة لحرية الانسان التي لا تقبل التجزؤ . لان الانسان لا يعد حراً ما لم يتمتع بالحرية على اختلاف وجوهها ، ويتحرر من كافة القيود المرهقة . فالتحرر من العوز لا يغني الانسان عن التحرر من الخوف ، ولا يغني ابداً عن حرية الكتابة والعبادة والخطابة والتصوير .. والمجتمع الحر هو الذي خلا تماماً من كل اثر لعبودية اقتصادية او سياسية او فكرية .

إن الذين عرّفوا الحرية ، وشاع استعمال هذا التعريف ، بان نفعل كل ما لا يحرمه القانون ، أرادوا ان يحددوا غير المحدود ، ويحصروا ما لا ينحصر ، ويضعوه ضمن سياج من اسلاك القانون الشائكة . وكل تجاوز لهذه التخوم المصطنعة تعدٍ على المصلحة يوجب انزال العقاب بالمعتدي . والقانون ، كغيره ، يتبدل بتبدل الاحوال ، فيبيح اليوم اموراً كان يحرمها بالأمس . وتبعاً لذلك يتسع نطاق الحرية ويضيق . ففي زمن الحروب ، حيث تصبح الادارة عسكرية ، يجري تضييق شديد على الحريات العامة بحجة سلامة الدفاع والمصالح العليا . ثم ان القوانين خاصة وليست عامة ، إذ انها تختلف بين بلد وبلد . وهي من وضع رجل أو هيئة من الناس لا تتصف بالعصمة ولا تخلو من الغرض ، وقد لا تتجاوب تماماً مع الارادة العامة بمعناها الصحيح . وبموجب هذا التعريف تصبح الثورات اجراماً والثوار مجرمين ، لأنها ليست إلا خروجاً على القوانين السائدة والنظم المسيطرة . ومع ذلك فانها موضع اعتزاز الأمم ومواقف فاصلة في تاريخها . وكثيراً ما يكون الاضطهاد نصيب اولئك الذين حاولوا تغيير الواقع أو توسيع آفاقه . ويرى البعض ان الاضطهاد الذي تلاقيه الحرية ليس شراً لأنه يذكي العزائم ، وهو ضروري لانتصار الآراء الجديدة . لان الامتحان القاسي الذي فرض عليها ان تجتازه يزيدها ثباتاً ويزيد إيمان الناس بها . فالاضطهاد ، مهما أمعن في الشدة والفتك ، لا يمكن ان يستمر ، اما الحق فيبقى وإن توارى احياناً . إن العقائد لا تنتصر بسبب الاضطهاد بل لتوفر عنصر الحقيقة فيها . وإذا ما انتصرت على الاضطهاد ، وسخر اصحابها منه ، فلانها أصح تعبيراً عن منطق التاريخ المتطور .

وعلى الرغم من كل ما لاقت الحرية في معركتها الدائرة من متاعب ، وأراقت من دماء ، فانها لا تزال ماضية ، تفعل في حياة الأفراد والشعوب. وقد ثبت من الثورات التي نشبت في العصور الحديثة ، ومن بيانات حقوق المواطن ، أو شرعة حقوق الانسان ، ان الناس لم يهتموا بالخبز والمأوى اكثر مما اهتموا بالحريات العامة . وقد تحمل البشر الفقر طويلاً ، على مضض منهم ، لكن صبرهم على الظلم لم يطل. فلماذا كان الاختيار نصيب الحرية ؟.

ان الحرية تمنح حق الاختيار . وفي الاختيار يحق الرفض أو القبول : ارفض ما لا يتفق مع المفاهيم التي وعاها وتبناها وجداني ، وأقبل ما ينسجم مع هذه المفاهيم . وفي الاختيار تتحقق الارادة الحرة التي تساعد على بروز الشخصية . والحرية اذ تتيح الاختيار ، وتتيح للارادة ان تثبت كينونتها ، ترتب مسؤولية على الانسان . وليس غير الانسان الحر الذي تلقى عليه اعباء المسؤولية . اما العبد والسجين والجبان فقد سلبت إرادتهم وأصبحوا رهن إرادة غريبة خارجة عنهم . وبتنازلهم ، طوعاً أو كرهاً ، عن إرادتهم تنازلوا عن حقهم الأصيل في الصراع للبناء . انهم لا يتمكنون من العطاء إلا بنسبة ما يتمتعون من حرية تتجلى فيها القوى والفعاليات .

وغير هذا ، فان الحرية تسمح لي بالشك فيما ارى واسمع وادرك . والشك لا شأن له البتة إذا ظل كامناً في الصدور دون ان يتجسد نقداً . وإذا تعذر على الشك ان يعبر عن ذاته انقلب ألماً مضاً وحقداً . والعبودية التي تريحني من الشك تئد في نفسي مزية التقدير ، وتمسخني مخلوقاً لا يفرح بنعمة العقل . وإذا حرصت الفئة الحاكمة على اجبار المواطنين كي يلزموا الصمت المبطن بالنقمة إزاء رأي من الآراء دون التمكن من اظهار شكوكهم ، تجرهم جراً لارتكاب الخطأ وممارسته ، وتثابر بعناد غريب على السير على الطريق المعوج ، دون ان تترك لمن يعرف ان يرشد الى الصراط المستقيم . وهذا الاستمرار في الضغط والارهاب يخلق انحرافاً في المفاهيم ، وتشويهاً للأخلاق يحطان من سوية مدارك الانسان . ان الفئة الحاكمة

بتدابيرها الاستبدادية لا تعتمد إلا على ثقافتها الخاصة التي سممتها الاجواء الضيقة ، ولا تجيز لها ان تتفاعل وتتأثر بثقافات اخرى حرة ، نشيطة ، جديدة . فهي من هذه الجهة الفكرية تشبه دولة تفهم الاكتفاء الذاتي في ميدان الاقتصاد بانه الانطراء على الذات ، والقناعة بما هو موجود ، ولا تفهم ان الاكتفاء لا يتحقق ما لم تعمد إلى التعاون مع بلدان اخرى فيها من القابليات الطبيعية غير ما فيها . وهذه الآراء التي فرض عليها ان تظل مكبوتة لا يمكن ان تكون شراً كلها ، ولا بد من ان تكون على نصيب من الصواب . ومما يجز في النفس هذا التفاوت في الاعتبار بين فريق وفريق : الفئة الحاكمة تستخدم القانون والقوة لضمان كيانها ونصرة آرائها ، وتسخر القانون والقوة للقضاء على آراء الخصم حيناً ، وعلى الخصم احياناً . انه لم يعط لها وحدها ان تقرر الخطأ والصواب . بل ان الشعب هو الحكم في هذه الامور ، فأما ان يعتنق المبادىء إذا آمن بها ، وإما ان ينبذها وهي في الاصل ما وضعت إلا له . وفي هذا الحد من الحرية تجرم بحق الشعب الذي فرض عليه ان ينحجر في قوقعة يمكث فيها مدى الحياة دون ان يحاول الخروج منها . والعقول ، إذا ما قضت زمناً طويلاً في هذا الجو الخانق تضمر وتهزل . وإذا ما سخرت القوة لخدمة مبدأ ما ، فلان هذا المبدأ لا يقوى على إحراز الغلبة على غيره إذا ما توفرت شروط الحرية لصراع العقائد .

وفي جو الحرية تتطهر الحياة الاجتماعية من العقائد الزائفة ، وتسقط في المعركة المبادىء الخاطئة . اما اذا عمدت هي الى تكبيل الفكر وتصفية العقائد التي لا ترضى عنها ، وذلك عن طريق التنكيل بالمواطنين لا تسلم من حكم التاريخ القاسي وتجلب على نفسها النقمة . ولئن كان اصطراع العقائد يحدث شيئاً من البلبلة والتوتر ، فلا بد من ان يقضي على الفاسد منها والزائف الذي يزيد في حدة البلبلة .

والحرية بعد كل هذا شرط لتفتح الشخصية وتكاملها . لانه يستحيل على الشخصية ان تبرز سجاياها الا في جوحرّ . ففي هذا الجو تنشط وتفعل وتحقق ذاتها . وفي هذا الانفتاح المطلق تتجسد امامنا المثل العليا في شخصيات حية عاملة ، وتتوفر لنا النماذج الرفيعة التي يصح اتخاذها قدوة لنا . ولا تستفيد الاخلاق وحدها من هذا الانفتاح بقدر ما تستفيد جميع نواحي النشاط الفكري من علوم وفنون وآداب . لان العبقريات تموت إذا ما حملت حملاً على ان تعمل ضمن نطاق محدود ولغاية واحدة معينة . واذا ما قدر للحرية ان تنهزم امام الاستبداد وقع الانسان في هاوية الحقارة والذل . وبهزيمة الحرية تتم هزيمة الشجاعة ويساور الخوف نفوسنا ويحول دون انطلاقها . اما من يجرؤ على قهر الاستبداد بالفكر والعمل فانه يعد من صانعي التاريخ ، وقادة الحركات التحريرية ، ورسل البطولة الواعية . وهذه الوثبة الرائعة لا تتأتى لأي كان . ولهذا لا تقع العين ، عبر التاريخ ، الا على القليل من المنارات القائمة ترسل الاضواء وتشع منها القيم . اما الكثرة الساحقة من الناس فانها تؤثر السلامة . ولكي تضمن السلامة لنفسها فانها تجنح الى النفاق والمهادنة . انها لا تحاول السمو فوق البيئة بل تكتفي بالتآلف معها .

وفي هذا التآلف تسيطر نفسية القطيع التي تصرف الاذهان عن القضايا الرئيسية الى القضايا التافهة .

فاذا ما أردنا لبلادنا جيلا يتحلى بالشجاعة الادبية ، فيقدس الحق ويحقر الباطل .

واذا ما أردنا جيلا يحدث ثورة جارفة في الاخلاق والفنون والاجتماع والاقتصاد .

واذا ما اردنا جيلا ينسف التقاليد الفاسدة ، ويغرف من معين قلبه وعقله بحرية .

إذا اردنا كل هذا ، فما علينا الا ان نطعم ابناء هذا الجيل الحديد خبز الحرية ، فبه وحده يحيون .

صافيتا — **الياس يعقوب**

الكتب الأدبية والمدرسية على اختلاف انواعها
احدث المطبوعات . ومجلات الازياء لعام ١٩٥٣
مبيع وإصلاح عموم أصناف أقلام الحبر
القرطاسية بانواعها وأدوات المكاتب
كل ذلك تجدونه دائماً في
بيروت شارع سوريا — **مكتبة هاشم** — ٨٣/٢٦